المحاضرة الرابعة :

الرواية المكتوبة بالفرنسية لكاتب ياسين

يتميز الأدب الجزائري الحديث عن بقية آداب اللغة العربية في العالم العربي بخاصية منفردة قلما نجدها تجتمع في أدب العروبة قديما وحديثا , يتمثل في ذلك التمايز في جملة من الخصائص المركبة المعقدة أنبتتها صيرورة تاريخية لا مناص منها تدخلت في تشكيل الأدب الجزائري على مر العصور ثلاثة عناصر : العنصر المحلي والعنصر العربي والعنصر اللاتيني الفرنسي , انصهرت العناصر الثلاثة وأثمرت أدبا جزائريا أصيلا .

أقبلت الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية تحمل في طياتها هذا التاريخ المثقل بالتنوع والثراء بالصراع والمقاومة , الأمر الذي يفسر غلبة طابع المقاومة على الإنتاج الروائي الجزائري ' الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية وما خلفته من إشكالية مطروحة حول اللغة والوطن : إشكالية التعبير في الأدب الجزائري , ومن هؤلاء الذين خلد التاريخ أسماءهم في مجال الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية مولود فرعون مالك حداد آسيا جبار محمد ديب كاتب ياسين مولود معمري رشيد بوجدرة .

أولا : مفهوم الرواية :

تعد الرواية من أهم الأجناس الأدبية التي حاولت تصوير الذات والواقع وتشخيص مشكلاته

لغة : رواية مشتق من الفعل روى ومعناه في اللغة العربية جريان الماء أو وجوده بغزارة , أما معنى الرواية كما نعرفه حديثا فقد أطلقه العرب على ناقل الشعر فقالوا رواية وبذلك قصدوا وجود تشابه معنوي بين الارتواء الروحي من جراء سماع الشعر أو استظهاره بالإنشاد أو الارتواء المادي وهو شرب الماء وذلك لأن الصحراء عند قديما توفرت على عنصرين مهمين الماء والشعر ويتضح معنى رواية هو الاستظهار

اصطلاحا : الرواية جنس أدبي حديث يعتمد السرد والنثر وتجتمع فيه مجموعة عناصر متداخلة أهمها الراوي , الأحداث , الشخصيات الزمان والمكان تتجه أساسا إلى إحداث جمالية فنية عن طريق تنسيق العناصر المختلفة المكونة لها .

دخلت الرواية إلى الثقافة العربية عن طريق الترجمة , وقد أثر المترجمون وبعدهم المؤلفون الأوائل من أمثال المنفلوطي في تكييفها بما يتماشى وذوق القراء , وبعد اتصال العرب بالغرب الحديث منذ مطلع القرن 19 من العوامل الحاسمة في ظهور عدد من الأجناس الأدبية عربت وترجمت الآلاف من الروايات الغربية وشهد النصف الثاني من الق 19 أولى محاولات التأليف الروائي في اللغة العربية .

- البداية الأولى للرواية في الجزائر كانت باللغة الفرنسية وهي نقطة الانطلاق لهذا الفن فيها حيث توجد مجموعة من الأدباء كما سبق ذكرهم ممن برعوا في الكتابة الروائية باللغة الفرنسية في الجزائر فقد كانت للأوضاع الاجتماعية والسياسية التي عاشها الشعب الجزائري آنذاك أثر كبير على الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية ممثلين بذلك صوت الشعب ونقد الواقع المزري والمعاناة التي يعيشها الفرد الجزائري .
- وقد صرح كاتب ياسين أكثر من مرة أن موقف الكاتب الجزائري الذي يعبر بالفرنسية هو أنه بين خطين من النيران يجبرانه أن يبدع أو أن يرتجل "

- ومن هنا يتضح أن الكاتب الجزائري الذي يكتب باللغة الفرنسية آنذاك لم يكن له خيار غير ذلك لاتخاذه اللغة الفرنسية كوسيلة للتعبير عن أوضاع المجتمع الجزائري ونقل الحقائق لأنهم لا يجيدون غيرها وسيلة لذا أعتبر أدبهم لما قبل وبعد الحرب أدبا تستخدمه هذه الأمة نفسها سلاحا لتحطيم قيود الاستغلال والإقطاع سلاحا في معركتها المظفرة ضد العدو المستغل
ويعتبر هذا الأدب ردا قويا على محاولات الاستعماريين في القضاء على كيان وقيم ذلك الشعب الثوري ولم يكتب أولئك الكتاب لأنهم فقط تعلموا بالمدرسة الفرنسية بل لأنهم عاشوا واقع وحقيقة معاناة الشعب الجزائري وأرادوا التعبير عن ذلك الواقع .

شكلت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية ظاهرة ثقافية ولغوية متميزة وأثارت بذلك حولها جدلا كبيرا بين النقاد والدارسين فمنهم من عدها رواية عربية باعتبار مضامينها الفكرية والاجتماعية والكثرة عدوها رواية جزائرية مكتوبة باللغة الفرنسية , باعتبار أن اللغة هي الوسيلة الوحيدة التي بها يكتسب الأدب هويته , ثم إن الكتابة الروائية بالفرنسية قد ساهمت في نمو الأدب الفرنسي أكثر مما ساهمت في اختصاب الأدب العربي , لذا فإننا حين نقف عند هذه الظاهرة المتميزة لابد من العودة الى عوامل ظهور هذا النوع من الفن وظروف نشأته

اللغة الفرنسية وجمعت بين ذلك حرفية الروائيين وحنكتهم ليصيب الكل في قوالب الانسجام فقد كانوا شاهدين على الواقع تمثل الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية مولودا استثنائيا يحمل في جيهاته الجوهر الجزائري والمضمون المحلي المكتوب بأسلوب وتقنية المعاش في تلك الفترة وكتبوا آملين أن يغيروا ولكن بلغة الآخر لأن معظم الكتاب لم تكن لهم حظوة تعلم اللغة العربية وإتقانها ليكتبوا بها , فهم لم يمتلكوا سوى اللغة الفرنسية كأداة للتعبير فاستعملوها ليسمعوا صوتهم لفرنسا الاستعمارية , ولينقلوا واقعهم وأحلامهم فلم يكن سهلا عليهم أن يكتبوا بغير لغتهم الأم ولكن هدفهم من تطوير لغة المستعمر كان لخدمة القضية الوطنية لذا يندرج الأدب الجزائري باللغة الفرنسية ضمن نطاق المثاقفة التي حتى وإن تمت بطرق عنيفة الاحتلال وفرضت الثقافة الجديدة على الثقافة المحلية فرضا , فإنها شكلت أدبا فريدا من نوعه ميز الأدب الجزائري عن غيره من الآداب الأوروبية والعربية .

وحتى الكتابة بغير لغة الأم لم تقتصر على الروائيين الجزائريين بل تعدت إلى غيرهم من اللبنانيين (جبران خليل جبران) والفلسطينيين ولم ينظر لهم قط أنهم انجليز أو فرنسيون .

*ذهب بعض الكتاب إلى القول بأن الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية أدب فرضته المرحلة وهو أدب انتقالي سيزول بمجرد زوال بواعثه وهذا ما حدث فعلا ومثالنا مالك حداد الذي انقطع عن التأليف باللغة الفرنسية إلا نادرا بعد الاستقلال دعا الكتاب تبني موقفه وفسح المجال للكتابة باللغة العربية , محمد ديب الذي لم ير شرا في استخدام اللغة الفرنسية ويعود ليقول أنه لن يشعر بالانتماء لمجتمع ما بمجرد الكتابة بلغته فالتوق سيكون دوما للأرض والجذور أما مولود معمري وكاتب ياسين فلا يرون في توظيف اللغة الفرنسية غير وسيلة لتوصيل أفكارهم ولم يشعرهم ذلك بأي عقدة نقص بل هو إثراء للأدب الجزائري.

كان للباحثين باللغة العربية رأيين مختلفين في تصنيف الأدب الجزائري باللغة الفرنسية فمنهم من يرى انه امتداد للأدب الفرنسي ولا يمت للجزائر بصلة ومنهم من قال انه أدب جزائري بمعنى الكلمة وليس فيه من الأدب الفرنسي شيء برر أصحاب الراي الاول باللغة التي كتب بها والتي تعتبر ناقلة للحضارة والثقافة اللاتينية أما أصحاب الرأي الثاني فيأخذون حججهم من تأثير البيئة الاجتماعية على الكتاب وانعكاساتها في نصوصهم.

أهم رواد الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية :

يوجد الكثير من الكتاب والرواد الجزائريين الذين قدموا إنتاجا فنيا رائعا حيث كتبوا عن الثورة الجزائرية التي سبقتها وخلال اندلاعها كانت كتاباتهم سلاحا في حد ذاته ضد المستعمر وتصنف رواياتهم ضمن أدب المقاومة وأبرزهم محمد ديب مالك حداد , آسيا جبار , مولود فرعون مولود معمري كاتب ياسين هذا الأخير سنسلط الضوء عليه ليكون أنموذجا لكتاب الأدب الجزائري باللغة الفرنسية

*كاتب ياسين * ولد في السمندو زيغود يوسف قرب قسنطينة عام 1929م تردد على المدرسة القرآنية (سدراتة) التحق بالمدرسة الفرنسية لافايات la fayette بولاية سطيف تعتبر سنة 1945 نقطة تحول ملحوظة في حياة كاتب ففي 8ماي قامت المظاهرات الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي وتم القبض عليه وطلبوا منه أن يخون وطنه إلا أنه رفض فبقي في السجن فترة من الوقت راح يمارس الكتابة والإبداع 1 أثناءها نشر مجموعته الشعرية مناجاة دخل عالم الصحافة 1948 توفي كاتب ياسين في 28 أكتوبر 1989 بمدينة غرونوبل الفرنسية عن عمر يناهز 60 سنة بسرطان الدم نقل جثمانه ودفن في الجزائر يوم أول نوفمبر 1989 مخلفا أشعار الجزائر المضطهدة , ألف عذراء مجموعة روايات المضلع النجمي نجمة مجموعة مسرحيات : الرجل ذو النعل المطاطي , حب دائري القصاص ...

لقد وضع كاتب ياسين فنه وكرس هذه الثروة الرائعة التي يزخر بها قلمه في خدمة القضية التي لطالما آمن بها الجزائر الحرة والثورة الدائمة والحياة الجديدة.

يعد مؤلف رواية نجمة التي نشرت سنة 1956 والتي تعتبر أحسن شاهد على ميلاد الجزائر الجديدة وقد استقبل النقاد والمفكرون الفرنسيون هذه الرواية بحفاوة بالغة كما اعتبروا مؤلفها أحسن من يمثل مدرسة إفريقيا الشمالية الأدبية من غير الأوروبيين.

نجمة تبرز دليلا يقينيا على أن الرواية الجزائرية قد ولدت وما جرحها إلا جراح الجزائر وعذاباتها وتعد من أعظم منجزات الأدب الجزائري الحديث , وتنبع أهميتها في تقديرنا من أنها تجسيم بالحجم الطبيعي لرحلة العذاب التي خاضها كاتبها ووطنه جميعا فهي تجسد شكلا ومضمونا كافة مراحل التطور ، تبنى كاتب ياسين موقفا متميزا في كتاباته فهو يبحث عن الموطن الأم مشخصا إياه في شخص امرأة يسميها "نجمة " وتصبح الجزائر حقيقة مجسدة وتكون نجمة بمثابة روح البلاد التي تسري والحادثة التي أثرت تأثيرا بالغا في أعمال كاتب ياسين مذابح سطيف وكانت الكتابة الأسلوب النضالي الذي اختاره في نصرة القضية الوطنية الجزائرية وتعتبر الجزائر بالنسبة إليه مصدر إلهام.

الشكل الفني في نجمة قريب غاية القرب من الفن التشكيلي في أحدث مراحله إذ تبدو كلوحة تجريدية يجتمع الماضي والحاضر والمستقبل فيها اجتماعا حيا مشخصا ماثلا كل من يقرأ نجمة يعتبرها هالة أدبية استقطبت اهتمام الجميع وكان موضوعا للترجمة والنقل لأنها بالنسبة للمترجمين عمل روائي كبير جدا يحتاج إلى مجهود كبير على مستوى المعنى والأسلوب .

خـــــــاتمـــــــة

من الصعب الحديث عن الأدب الجزائري المعاصر دون التصادم بإشكالية اللغة التي يعبر بها هذا الأديب أو ذاك وتزداد الإشكالية تعقيدا حين يتعلق الأمر بشرعية تمثيل النص الأدبي للهوية الثقافية

الجزائرية في بلد تتنازعه لغتان : العربية والفرنسية , ومن السهل القول إن المسألة لا تطرح أزمة في المفاهيم انطلاقا من أن الفكرة التي يزخر بها قلم الأديب هي الجوهر وبالتالي الهوية لدى الكاتب والمبدع لا يمكن تحديدها وحصرها في جنسية اللغة التي يكتب بها المؤلف وروائعه الإبداعية إن شعرا أو نثرا , كما تعتبر العملية الأدبية في الجزائر تجربة فريدة في تاريخ الآداب القومية المعاصرة إنها بتطورها السريع وبتكاملها قد سبقت التطورات الاجتماعية المعاصرة وإذا كان الحديث يدور عن أدب باللغة العربية أو أدب باللغة الفرنسية أو أدب باللغة البربرية فلا يعني ذلك أن هناك آدابا منفصلة تتكلم بهذه اللغات بل إن الأدب الجزائري يكون وحدة متكاملة.

وبالرغم من الآراء المتباينة بشأن خصوصية النص الأدبي الجزائري المعاصر فإن واقع الحركة الإبداعية تواصل تقدمها وتجدد تألقها وتحدد ذاتها حتى إن كان هذا النص يحلق بجناحين العربية والفرنسية .

المراجع :

1. ينظر : جبور أم الخير ،الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية دراسة سوسيو نقدية ، دار ميم للنشر و التوزيع ،ط1،الجزائر ،2013 .
2. منور أحمد : الأدب الجزائري باللسان الفرنسي ، نشأته و تطوره و قضاياه ، دار التنوير ، الجزائر ،ط1 ،2013 .
3. ينظر : فاطمة الزهراء ،العناصر الثقافية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية رواية " بماذا تحلم الذئاب " ليسمينة خضرة ــ دراسة تطبيقية لرسالة ماجستير في الترجمة جامعة وهران 1 ،2016/2015 .
4. https://theses.univ-oran1.dz/thesear.php?id=THA3943